رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الهوية الإسلامية والعولمة الوضعية

جدلية الثابت والمتغير

إعداد

الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر

المجتمع المسلم.. الثوابت والمتغيرات

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ – ٥/ذو الحجة/١٤٣٢ هـ

٢٠ – ٢١ / ١٠ / ٢٠١٢ م.

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية
صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)
هاتف: ٥٦٠٠٩١٩٢٠٠٩٦٦-الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧
برقياً: رابطة – مكة ، تلكس: ٥٤٠٠٠٩و٥٤٠٣٩٠
www.themwl.org

العلاقة الجدلية بين العولمة
والهوية الإسلامية

قراءة تاريخية:

العلاقة الجدلية بين المسلمين والغرب؛ تدثرت في كليا ا بكثير من المفاهيم العدائية التي وثقت لها أدبيات الحضور الإسلامي في أسبانيا، والحروب الصليبية في الشرق الأوسط، والتوسع العثماني في جنوب شرق أوروبا، ومن ثَم قادت القراءات التاريخية التي صاغها رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت عن تلك المشاهد السياسية؛ إلى تشكيل التصور الغربي الأوروبي للمسلمين؛ وفق منظومة كنسية تقضي بأن الإسلام (دين شيطاني رجيم، أبرز صفاته: النفاق، والتجديف، والغموض، وأن محمداً نبي كذاب، داعيةُ تفْرِقة، يمن عليه الشهوانية والنفاق)[١].

وبذلك حجب علماء اللاهوت والمحافل الكنسية؛ عامةَ الشعب الأوروبي عن معرفة الجوانب المشرقة في الحضارة الإسلامية وقدر ا على التواصل مع الآخر؛ لأنهم كانوا يعيشون حالةَ عدمِ ثقةٍ بالنفس، نتيجةً لعجزهم عن بث تعاليم المسيحية بالطريقة التي ينشدو ا، في ظل المد الإسلامي الكاسح في إقليم البلقان المسيحي، وبعض من أجزاء أوروبا الغربية.

وظلت هذه الصورة المشوهة عن الإسلام عالقة في ذاكرة العقل الأوروبي وتصوره للطرف الآخر، ولم تتحسن حتى في عهد الإصلاح والنهضة، حيث وصف «مارتن لوثر» الإسلام بأنه حركة هدامة معادية للمسيح، يجب مواجهتها بالسيف؛ وأكد هذا الزعم

(١) برنارد لويس وإدوارد سعيد، الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، بيروت: دار الجيل، ص ٣٥.

«فولتير» رائد حركة التنوير في كتابه: (التعصب، أو الرسول محمد).

وكل هذه النماذج تؤكد الروح العدائية التي نشأت بين الإسلام والغرب، وجعلت الإسلام مسخاً مشوهاً في العقلية الغربية التي تعده (ديناً خليقاً، اخترعه أناس ذَوو دوافع وشخصيات معوجة، روجوا له بالسيف، وأن الله ليس رباً، وأن محمداً ليس نبياً)[1].

وفي العصور التي تلت عصر النهضة؛ بدأت تتشكل معالم المركزية الغربية التي فرضت تصوراً خاصاً لتاريخ أوروبا والغرب عموماً، منذ القرن الثامن عشر الميلادي، واستطاعت أن تعيد إنتاج الماضي بكل مكوناته الثقافية والدينية والعرقية؛ ليوافق ذلك التصور الـذي جعل الغرب هو الأسمى في مقابل الآخر الذي وصفوه بالتخلف والهرطقة والتعصب، وعند هذا المنعطف- كما يرى «عبد الله إبراهيم»- تم اصطناع خرافة الأصل النقي، والمعجزة الإغريقية، والادعاء بوحدة الفكر الغربي، وتماسكه، وخصوصيته، واطّـراده، ثم الإقـرار بصلاحيته لكل زمان ومكان، وفي مرحلة التكوين الأولي لهذه المركزية الغربيـة؛ بـرزت أدبيات «فيكو»، و«هردر»، و«كوندرسيه»، ثم تلتها جهود «كانـت»، و«هيغـل»، و«كُونت»، التي كانت تنظر إلى العالم خارج نطاق أوروبا (بوصفه.. غامضاً، بـدائياً، ملتبساً، خاضعاً لعلاقات اجتماعية تحتاج إلى تهشيم قبل أن يتم نشر الأخلاق والفضيلة في ربوعها)[2].

---

(١) انظر: آربت حوراني:

Albert Hournai, Islam in European Thought, Cambridge: Cambridge University Press, 1991**, p.** 10**.**

(٢) عبد الله إبراهيم: «مفهوم التمركز، المركزية الغربية»، (٢٠٠٤/١/١١)

http://www.abdullah-ibrahim.com/page١_٣_٧.htm

الهوية الإسلامية وحركات الإصلاح

انطلقت أدبيات الاستشراق من هذه الخلفية المشوهة، وحاولت أن تروج لنقاء الرجل الأبيض، ودوره الرسالي في إرساء قيم حضارة زاهية في أوساط الشعوب التي وصفها «هيغل» وغيره بالتخلف والدونية، وراهنوا على قابليتها للاستعمار.

ويصف «إدوارد سعيد» هذه الأدبيات الاستشراقية بأ ا مجرد أدوات تبريرية لفرض هيمنة الغرب على الآخر، الذي عري ثقافياً، وعومل ككائن أنثربيولوجي يصلح فقط للدراسة والسيطرة، دون أن يكون له الحق في ممارسة حقوقه الإنسانية المشروعة، وعند هذا المنعطف يكمن الدور الوظيفي الاستشراقي المكمل لمشروع الإمبريالية التوسعي[١].

وفي ظل هذا التصور الأوروبي للعالم الإسلامي والادعاءات التبريرية لفرض قيم الإمبريالية الغربية على الشعوب المسلمة؛ كانت الهُوية الإسلامية تعيش أزمةً داخلية، وتوجساً غير مدرك لعواقب التهديدات الخارجية التي ستؤدي إلى نقصان سياد ا السياسية، ومحوِ بعض معالمها الثقافية، وعند هذا المنعطف؛ ظهرت بعض الحركات الإصلاحية المدافعة عن قضية الهُوية بصورٍ وبرامج مختلفةٍ، منها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله- التي أولت اهتماماً خاصاً بالجانب الديني للهوية الإسلامية، وركزت نشاطها في قضية التوحيد، ومحاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع ثوابت القرآن والسنة، وضرورة العودة إلى تراث السلف الصالح والاقتداء به[٢].

---

(١) لمزيد من التفصيل؛ انظر: إدوارد سعيد، الاستشراق:

Edward W. Said, *Orientalism*, New York: Vintage Books, 1979**.**

(٢) نلحظ أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ركز على قضية التوحيد، وجعلها محوراً لقلع أصول الشرك في العبودية، ومرتكزاً لتوحيد الأسماء والصفات، وأداةً لرفع غشاوة الجهل وكابوس التقليد، ومدخلاً لفهم معنى الشهادتين والالتزام بالتكاليف التعبدية المصاحبة لهما، وباعثاً لمحاربة =

و ـذه الكيفية حاولت الحركة السلفية أن تعيد صياغة الجانب الديني للهوية الإسلامية في إطار أُممي، رافضةً الاعتراف بالجزئيات المذهبية والأدبيات الصوفية المكونة لصرح الهُوية العام الذي أُسس على ثوابت الوحي وإفرازات الحراك التاريخي، وبذلك استطاعت أن تقدم إضافة جديدة داخل إطار الهُوية الإسلامية العام ذي الانتماءات الدينية والثقافية المتعددة.

أما الجانب السياسي للهوية الإسلامية في مرحلة الأزمة؛ فقد ارتبط بقضية الخلافة الإسلامية وسياسة «إستانبول» الخارجية التي أوضحها «السلطان عبد الحميد الثاني» في إطار دعوته لإنشاء الجامعة الإسلامية؛ إلا أن هذه الدعوة واجهت تحدياً قوياً من ِقبل القوميين في الداخل، ومن القوى الاستعمارية التي أصبح لها حضور كثيف في صياغة القرار السياسي داخل بلدان العالم الإسلامي(1)، ومن ثَم فإن نجاح الدعوة لتثبيت قواعد الخلافة الإسلامية كان نجاحاً محدوداً، تجسدت معالمه في قيام حركة الخلافة في شِبه القارة الهندية؛ إلا أنها سرعان ما تقوقعت بعد إلغاء الخلافة الإسلامية في إستانبول عام ١٩٢٤م، وعندئذ ظهرت دعوة «محمد رشيد رضا» لإعادة تأسيس الخلافة الإسلامية وفق متطلبات جديدة تقتضيها ظروف ذلك العصر؛ إلا أن هذه الدعوة أيضاً لم تأت

=

الشرك السياسي وإعلان الجهاد لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، لذا فإن قضية التوحيد تمثل العمود الفقري الذي يجب أن يستند إليه جسد الهُوية الإسلامية وصرح حضار ا القائم على مفهوم خلافة الإنسان المسلم على هذه الأرض.

(١) لمزيد من التفصيل عن قضية الخلافة والوحدة الإسلامية في أدبيات العمل السياسي بإستانبول؛ انظر:

ocobJ. Landau, The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization, Oxford: M Clarendon Press, 1990.

بنتائج إيجابية[١]، ومن ثَم فقد جسد إلغاء مؤسسة الخلافة التي كانت تمثل الرمز السياسي لمفهوم الهُوية الإسلامية؛ تداعيات المرحلة الأخيرة لتقسيم العالم الإسلامي إلى مستعمرات ومحميات، وتقهقرت فيها إلى الوراء أدبيات الديمقراطية الليبرالية القائمة على الحرية والمساواة والعدالة، ونشطت أدوات القهر والاستبداد والاستنـزاف البشري والمادي، وبدأت عملية «القضاء على هويات الشعوب المستعمرة - المتمثلة في ثقافا ا ولغا ا وعادا ا وتقاليدها - باسم الحداثة والثقافة العالمية الواحدة»[٢].

أما الجانب الإصلاحي الفكري، فقد حاول أن يتجاوز عملية الاستفادة من إنجازات الحضارة الغربية في ا الات التقنية والإدارية والتنظيمية؛ إلى تطوير المعرفة الإنسانية القائمة على الاجتهاد البشري الذي يستقي مشروعيته من القرآن والسنة الصحيحة، ويصطحب معه ما لا يتعارض مع هذين المصدرين، ثم يوسع باب المصالح المرسلة من أجل الاستفادة من منجزات الحضارات الأخرى، ويفتح كُوةً للتواصل الإيجابي معها، وقد تجلت هذه النظرة الإصلاحية المعرفية التي يدور محورها حول تأصيل الهُوية السياسية المكتسبة؛ في

---

(١) قضية الخلافة أو الإمامة العظمى من أهم القضايا السياسية التي شغلت حيزاً في تفكير محمد رشيد رضا، فقد تطرق إليها بإسهاب في كتابه «الخلافة أو الإمامة العظمى،القاهرة: مطبعة المنار١٩٢٣م، وارتكزت محصلته الوسطى على وضع أسس جديدة لنظام الخلافة الإسلامية، بحيث تكون مؤسسة سياسية فاعلة ومواكِبة لمقتضيات الحياة السياسية العصرية للمسلمين المحْدثين، ثم شرع في نشر الفصول الأولى لكتابه في مجلة المنار بعنوان: «مذكرات مؤتمر الخلافة الإسلامية»، المنار، ١١من يونيو ١٩٢٦م، ٣/٢٧، ص ٢٠٨-٢٣٢؛ ١٠من يوليو ١٩٢٦م، ٤/٢٧، ص ٢٨٠-٢٩٤؛ ١٨ من أغسطس، ١٩٢٦م، ٥/٢٧، ص ٣٧٠-٣٧٧؛ ٧ من سبتمبر ١٩٢٦م، ٦/٢٧، ص ٤٤٩-٤٥٨.

(٢) حسن حنفي، «الغرب وأزمة البحث عن عدو»، العربي، الكويت: وزارة الإعلام، العدد ٥١٨، يناير ٢٠٠٢، ص١٣٤.

أدبيات الشيخ محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا[١].

وفي فترة النضال السياسي ضد المستعمِر؛ تصاعدت حدة الصراع بين تيار الهُوية الإسلامية الذي ينادي بالإصلاح والعودة إلى تراث السلف الصالح، وتيار القوميات الذي انسلخ من جسم الهُوية الإسلامية الجامع، ولعوامل مصلحية متبادلة بينه وبين دعاة العولمة المتدثرة بعباءة الإمبريالية الغربية؛ استطاع أن يحقق نجاحاً نسبياً على حساب تيار الهُوية الإسلامية، الذي تقلص نشاطه في شكل دعوات إحيائية في أوساط الحركات الإسلامية النخبوية، وبذلك أسست النخبة القومية الحاكمة مفرداتِ عمِلِها السياسي وفق مرجعيات غربية، اصطحبت معها مفهوم العلمانية، وتوسعت لتمكين قيم الدولة القُطرية بصورة مغايرة لثوابت النموذج الغربي القائم على الحريات العامة، والديمقراطية، والمساواة. فالعلمانية التي تبناها قادة التيار القومي؛ لم تقف عند فصل الدين عن الدولة بوصفه أساساً مرجعياً لتراث الحداثة؛ بل تجاوزت ذلك إلى محاربة كل الأنشطة السياسية والثقافية والاجتماعية التي تصب في معين الهُوية الإسلامية، وجعلت الدولةَ القُطريةَ أداةً لمحاربة برامج الحركات الإحيائية التي تدعو إلى إعادة الوحدة الإسلامية وتطبيق الشرع الحنيف[٢].

(١) لمزيد من التفصيل؛ انظر: محمد رشيد رضا، تاريخ الإمام محمد عبده، جـ ٢، القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٢٤هـ، حيث وثق رشيد رضا لأدبيات محمد عبده الخاصة بقضية الهُوية الإسلامية وبعدها الفكري القائم على العلم والمعرفة والتواصل مع الآخر في إطار ثوابت الدين الإسلامي، وفصل هذه القضايا ومثيلا ا في مجلة المنار.

(٢) انظر: مير زهير حسين:
Mir Zohair Husain, Global Islamic Politics, New York: Harper Collins Colleague Publishers, 1995، **pp.** 158 – 176.

إلا أن هذه التيارات القومية فشلت في تحقيق الشعارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي رفعتها في مرحلة النضال الوطني، وفي إدارة الأزمة السياسية التي صحبت خروج المستعمِر الأوروبي من البلدان المسلمة، ومن أفضل الأمثلة التي تؤكد صحة هذا الفرضية: موقف الشعوب العربية التي كانت مقتنعة في ستينيات القرن الماضي «بحتمية سيادة القومية العربية»، ثم ارتدت عن هذه القناعة، و«صارت تردد الآن شعار: الإسلام هو الحل»[(١)]، وظهر هذا الشعار بكثافة وقوة في الربع الأخير من القرن العشرين، ثم تحول إلى واقعٍ محسوسٍ بعد نجاح ثورات الربيع العربي التي أفسحت ا ال للإخوان المسلمين لكي يأتوا إلى سدة الحكم عبر انتخابات عامة، كما حدث في تونس ومصر.

(١) حيدر إبراهيم، «العولمة وجدل الهُوية الثقافية»، مجلة عالم الفكر، مج ٢٨، ع ٢، أكتوبر/ديسمبر ١٩٩٩م، ص ١٠٣.

العولمة في طورها الثالث

على الصعيد الدولي؛ انتقل مركز ثقل العولمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وظهر الاتحاد السوفيتي كتحدٍّ جديدٍ للمرجعية الغربية الناشئة، ونتيجةً لهذه النقلة النوعية؛ حاولت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الغرب أن يوسعوا دائرة تحالفا م المصلحية؛ ليستفيدوا منها في الحد من انتشار المد الشيوعي، وبموجب هذا؛ نشأت أحلاف مرحلية مع بعض الحركات الإسلامية التي استخدمت لمنافحة المد الشيوعي في أفغانستان(١).

إلا أن ا يار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات من القرن الماضي؛ قاد إلى اختفاء شبح الحرب الباردة، وتقسيم العالم إلى «مركز» مهيمن تتصدره الولايات المتحدة الأمريكية، و«تخوم» مهمشة تمثلها الدول المصنفة خارج خارطة الديمقراطية الليبرالية الغربية واقتصاديات السوق الحر، ومن أهم الباحثين الذين وثقوا لهذه النقلة النوعية: «باري بوزان»، في مقال نشرته **مجلة الشؤون الدولية الأمريكية** بعنوان: «أنماط جديدة للأمن العالمي في القرن الواحد والعشرين»(٢)،حيث قال: إن أنماط الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في عصر العولمة؛ يجب أن تحدد وفق تطلعات المركز الذي تمثله مجموعة «الدول

---

(١) انظر: فواز أ. جورجس:

Fawaz A. Gerges, “Islam and Muslims in the Mind of America”, University of Cambridge, http://www.fathom.com/course/21701771. **sessions, html, (consulted:** 15/2/2004)

(٢) باري بوزان:

Barry Buzan, "New patterns of global security in the twenty-first century", International Affairs, vol. 67 **No.** 3 **July** 1991, 431–452.

العظمى» المسيطرة على اقتصاديات العالم الرأسمالية، وعلى دول التخوم أن تعيد صياغة واقعها في إطار منظومة العلاقات التي يشكلها المركز حسب متطلباته الراهنة، ويعتقد «بوزان» أن سقوط الاتحاد السوفيتي (والشيوعية بالتالي) قد خلق نوعاً من وحدة الهدف الأيديولوجية بين دول المركز (أمريكا الشمالية، وأوروبا واليابان، وأستراليا)، بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية[١].

وفي ضوء هذا التحول؛ صارت الولايات المتحدة الأمريكية قوة سياسية واقتصادية وأمنية فاعلة، تكمن غايتها المُثلى في فرض خصوصيا ا الحضارية وبرامجها النفعية المرتبطة باقتصاديات السوق الحر، القائمة على ثنائية المنافسة والمنفعة الذاتية[٢]، بحجة أ ا ثوابت أقر ا مؤسسات الشرعية الدولية الممثلة في هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، وصندوق النقد الدولي، وغيرها من الآليات الأخرى ذات الصبغة التشريعية والتنفيذية والقضائية[٣].

وببروز دور المركز ذه الصورة الفاضحة؛ تجلت معالم الحلقة الثالثة للعولمة الوضعية المعاصرة، التي يرتكز بعدها الثقافي على الحرية الفردية المطلقة، وحرية الاعتقاد، وإنكار وجود الله، وتوحيد القيم الخاصة ببناء الأسرة وا تمع، ثم تحديد أنماط السلوك البشري- السياسية والاجتماعية والاقتصادية - وفق مرجعيات التراث الغربي، ويتجاوز بعدها الاقتصادي أدبياتِ المدرسة الكينـزية ذات الطابع القومي للاقتصاديات الرأسمالية؛ إلى رحاب الاقتصاد الكوني الذي يقوم على توحيد «رؤى العالم الاقتصادية ضمن الرؤية

---

(١) باري بوزان، مرجع سابق، ص ٤٣١-٤٥٢.
(٢) فهمي جدعان، «متي تحين لحظة الحوار؟ بحثاً عن الإسلام الحضاري»، العربي، الكويت: وزارة الإعلام، العدد ٥١٩، فبراير ٢٠٠٢م، ص ١١٣-١١٤.
(٣) باري بوزان، مرجع سابق، ص ٤٣١-٤٥٢.

الأمريكية (أمركة العالم) التي تعمل على خلق ولاءات اقتصادية جديدة تربط المصلحة الاقتصادية الوطنية أو القُطرية بالمصلحة الاقتصادية العالمية»[١]، وذلك يعني انتقال النمط الاقتصادي من اقتصادٍ تقوم خلاياه القاعدية على المنافسة والقولبة حول الذات القُطرية؛ إلى اقتصاد عالمي قائم على التبادلات الاقتصادية الكونية غير المتكافئة بين المركز والتخوم، لأن مسارات هذه التبادلات قد حددت وفق تطلعات دول المركز وشريكا ا متعددة الجنسيات[٢]، ويستند بعدها السياسي إلى محصلة مزدوجة ومتناقضة مع ذا ا؛ لأ ا تسعى لفرض خصوصيا ا الديمقراطية على المناطق التي كانت تقع خارج دائرة نفوذها السياسي مثل شرق أوروبا، وتحاول أن تحمي الأنظمة الدكتاتورية في مناطق نفوذها، بحجة أن السواد الأعظم من شعوب تلك المناطق مناهض لسياسة التغريب وهيمنة الإدارة الأمريكية، لذا فإن القول بزوال الحدود السياسية وذوبان الدول القُطرية ذوباناً كاملاً في محيط النظام العالمي الجديد؛ فيه شيء من التعميم، لأن الدول القُطرية ستظل قوية وفاعلة في المركز، ولا شك في أن هذه الفاعلية ستمكنها من فرض خصوصيا ا على دول الجوار التي أضحت سيادتها مرهونة بسلطان الشركات متعددة الجنسيات، والمؤسسات التي تحمل بعض الديباجات الدولية (كهيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، وصندوق النقد الدولي)[٣]، أما بعدها الإعلامي فليس غاية في حد ذاته؛ بل وسيلة لإزالة الفوارق الثقافية، والتمكين لثقافة ا تمع الغربي القائمة على أدبيات الحداثة وما بعدها.

---

(١) مهاب ذياب، « ديدات العولمة للوطن العربي»، المستقبل العربي، العدد ٢٧٦، فبراير ٢٠٠٢، ص ١٥٤-١٥٥.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) أحمد إبراهيم أبوشوك، «العولمة بين أطروحتي اية التاريخ وصدام الحضارات»، مجلة تفكر، والدكتور مدني: جامعة الجزيرة (السودان)، ا لد ٥، العدد ١، ٢٠٠٣/١٤٢٤، ص ٩٨-١٠١.

ولتحقيق هذه الغاية المنشودة؛ استطاع إعلام العولمة المعاصر أن يخلق شبكة من وسائل الاتصال القائمة على الصورة والكلمة، والبث السريع المتواصل على مدار الأربع والعشرين ساعة، وهذا التكرار المصحوب بالصورة والكلمة؛ يؤدي إلى ترسيخ الرسالة الإعلامية في أذهان المشاهدين والمستمعين، ويسهم في خلق بيئة ثقافية واحدة تربط بين أبعاد العولمة المعاصرة التي أشرنا إليها أعلاه[١].

(١) السيد أحمد مصطفى عمر، «إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك»، المستقبل العربي، العدد ٢٥٦، يونيو ٢٠٠٠م، ص ٨١.

العولمة وتيارات الإحياء الإسلامية

نتيجة للتحدي الذي أفرزته العولمة المعاصرة لمفهوم الهُوية الإسلامية؛ برزت على السطح ثلاثة تيارات رئيسة داخل إطار الحركات الإحيائية الإسلامية، تدعو إلى تمكين قيم الإسلام وصون مفهوم الهُوية الإسلامية:

١- يسعى أولها إلى ترسيخ قيم التراث الإحيائي باعتبارها ترياقاً واقياً لجسد الأمة الإسلامية الذي تحاصره أدبيات العولمة؛ إلا أن هذا التيار الانكفائي؛ أظهر عجزاً عن التكيف والقدرة على امتلاك وسائل حقيقية للدفاع عن الهُوية الإسلامية التي ـدف للعودة إلى أصول الدين، وتأسيس مجتمع يشبه مجتمع النبي ث[١].

٢- وانطلق من نفس القاعدة تيار آخر، تميز عن سابقه بالدعوة إلى نقل الصراع من حواضر العالم الإسلامي إلى مراكز العولمة الحقيقية في الغرب، وعلى وجه التحديد محاربة «الشيطان الأكبر» أمريكا، تعللاً بأن هذه المراكز هي مصدر الخطر الحقيقي لهُوية الأمة الإسلامية، ويقود هذا التيار: تنظيم القاعدة الذي كان يتزعمه «أسامة بن لادن» وينظر له الدكتور «أيمن الظواهري»، ويؤكد هذا الزعم قولُ «الظواهري»: «إن واقع الحال الإسلامي يقتضي ضرورة نقْل الصراع نقلةً نوعية من تخوم العالم الإسلامي إلى مركز العولمة المعاصرة في الغرب»[٢]، ولعلنا نتفق مع «تركي الحمد» على أن أطروحات هذا التيار ترتكز على فكرة ا ا ة والمواجهة الجهادية مع الآخر (العدو)، ولكن ليس لديها مشروع فكري متكامل بشأن بناء الدولة وا تمع، وليست لها أيضاً (حلول

(١) حيدر إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) أيمن الظواهري، «الوصية الأخيرة»، صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٨٤١٥، ٢٠٠١/١٢/١٢م.

سياسية واجتماعية واقتصادية محددة للقضايا المعاصرة)[١].

٣- أما التيار الثالث فهو تيار فكري في المقام الأول، ينظر إلى قضية الهُوية من خلال أطروحات تجديدية تنطلق من قاعدة ثلاثية؛ قوامها: التراث، والمعرفة الحداثية، والنص (أو الوحي) بوصفه قاعدة حاكمة للمعرفة الإنسانية وكيفية تواصلها مع أدبيات الحداثة. ونلحظ أن قضية الهُوية قد تراجعت في سلم أولويات هذا الخطاب التجديدي؛ إلا أن هذا التراجع لا ينفي وجودها في العقل الباطن لمنظريه، الذين يرفضون تصنيف المعرفة الغربية بأ ا معرفة كونية يجوز التعاملُ معها بصفة مطلقة، بل يقولون إ ا معرفة مثقلة بإسقاطات الفكر الغربي، ومن ثَم يطالبون بإعادة صياغتها وفق ثوابت الوحي وأدبيات التراث الإسلامي، من خلال إدراكٍ ثاقبٍ لأبعاد الزمان والمكان، والتغيرات الكمية والنوعية التي تطرأ على أنماط الحياة البشرية[٢]، والمحرك الأساس في هذا الشأن -بحسب اعتقادهم- هو «المنهج الفكري السليم» الذي يمكن من خلاله معالجة الخلل الفكري السائد في أوساط ا تمعات المسلمة، وإعادة تثقيف الرؤية الاجتماعية والحضارية المُعوجة، وتقويم فساد التربية الإسلامية، ثم تأهيل المؤسسات المنهارة في الدولة وا تمع، لذا فإن هذا التوجه قد قاد منظري تيار الأصالة الإسلامية المعاصرة؛ إلى اعتبار «الجانب السياسي والحركي أمراً دفاعياً بالدرجة الأولى؛ لتوفير الظروف والإمكانات» الملائمة لإصلاح مصادر الطاقة في العقول والنفوس[٣].

(١) تركي الحمد، «من خطاب التدمير إلى خطاب التعمير»، صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٢٩٠٨، ٢/١٢/ ٢٠٠٤م.

(٢) عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ط ١، ڤِرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١م، ص ٤١-٤٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

ولعلنا نتفق مع «عبد الرحمن الحاج إبراهيم»: على أن تراجع الهُوية في سلم أولويات هذا التيار؛ قد مهد الطريق لتواصلٍ نسبي مع الآخر (الغرب)، إلا أنه لم يفلح في تأسيس نموذجٍ متكاملٍ ومقبولٍ للتيارات الإسلامية الأخرى، بدليل أن بعض التيارات الإسلامية السلفية تتهم تيار الأصالة الإسلامية المعاصرة بالتواطؤ مع الغرب، وتعتبره أداةً لنقل الكفر المتجسد في فلسفات العلوم الإنسانية التي نشأت في رحِم الدارونية التطورية، والنسبية النافية لوجود الله عز وجل [١].

وأخيراً حاول بعض الدعاة الإسلاميين والمؤسسات الإسلامية؛ أن يتبنوا خطاباً وسطياً في العلاقة مع الآخر، وتقريب المذاهب الإسلامية للعمل على صون الهوية الإسلامية، وينطلق هؤلاء من مبدأ ثابت مفاده: أن الإسلام دين وسطٌ متكاملٌ في نفسه، متزنٌ في تعامله مع الآخر، وذلك حسب رؤية المنتدى العالمي للوسطية بالأردن، التي تهدف إلى جعل المنتدى (مِنبراً للعلماء والمفكرين المسلمين؛ ليسهموا في تعزيز مفهوم الوسطية الإسلامية؛ وتنفيذِه على صعيد الواقع بشكل يجعل رسالة الإسلام مواكِبةً لاحتياجات المسلمين المعاصرة في القرن الحادي والعشرين، وبذلك يكون للمنتدى دور مهم في تقليل الفجوة بين العالم الإسلامي والغرب، وتشجيع التواصل والحوار بين مختلف المذاهب الفكرية في العالم الإسلامي).

ومن جملة التحديات التي تواجه دعاة الوسطية: جعلُ الدعوة الوسطية رد فعلٍ لسلوكيات بعض التيارات المعادية للغرب،المخاصِمة لبعضها داخل محيط العالم الإسلامي،

---

(١) عبد الرحمن الحاج إبراهيم، «تجديد الخطاب الديني في الزمن الأمريكي: التجديد الإسلامي وخطاب ما بعد الهُوية»، الإنترنت:

http://www.islamonline.net/Arabic/contemporary/2004/02/article02d.shtml.

ولذلك يحترز الأستاذ «نبيل شبيب» بقوله: (يميل الخطاب الوسطِي إلى التركيز - حسب احتياجات معركة جانبية دخيلة- على جوانب من الإسلام دون أخرى، أو إلى إبراز بعض ميزاته على حساب بعضها الآخر، تماشياً مع ما يقال عن ضرورات الرد على أفعال الآخر في الغرب، وما يطرحه وينطوي على افتراءات أو مغريات وغضبة عامةِ المسلمين إزاءها، أو تماشياً مع ما يقال عن ضرورات الواقع القائم في البلدان الإسلامية نفسها، واحتياج الممارسات السياسية إلى نفْي ا امات التطرف والإرهاب وما شابه ذلك عبر أطروحات السلام والتسامح وحدها، رغم التعرض لعداء الآخر)[١].

و ذا نخلُص إلى أن التيارات الإسلامية المختلفة لها مواقف متباينة تجاه العولمة المعاصرة وكيفية التعامل معها، وتتدرج هذه المواقف بين الرفض التام لقيم العولمة المعاصرة، وبين النظرة التوفيقية التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتحاول أن تجد طريقاً وسطاً للتعامل والتفاعل مع أدبيات العولمة المعاصرة؛ إلا أن مثل هذا التصنيف لم يكن واضحاً في مخيلة الغربي التي تنظر إلى الحركات الإسلامية المختلفة باعتبارها نسيجاً واحداً، يقوم على مرجعيات دينية وقيم تراثية تدعو إلى الصدام مع الآخر، وأن خطا ا الداخلي يثبت عداو ا الاستراتيجية للغرب.

---

(١) نبيل شبيب، «الوسطية الإسلامية.. المفهوم، التحديات، الأدوار»، مؤتمر المنتدى العالمي للوسطية، صنعاء، ٥-١٤٣١/٦هـ - ١٩-٢٠١٠/٥/٢٠م.

التحديات التي تواجه الأطروحات الإسلامية

يبدو أن فكرة العدو هذه متأصلة في أدبيات العولمة المعاصرة؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية فور ا يار الاتحاد السوفيتي؛ رشحت الحركات الإسلامية ما يعرف (بالإسلام السياسي) لشغل خانة الخطر الأحمر، وقد اكتسبت فكرة الخطر الأحمر بعداً مسيحياً أيديولوجياً في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان الذي قال: «إن الخطيئة والشر موجودان في العالم، وقد أمرتنا الكتب المقدسة وسيدنا المسيح بأن نوجههما بكل ما أوتينا من قوة، ولا تنسوا الأعمال العدوانية لإمبراطورية الشر [يقصد الاتحاد السوفيتي]، ولا تقفوا على الحياد أمام هذا الصراع الدائر بين الخير والشر»[(١)].

وهذا النص يشير إلى إن مفهوم العدو بمختلف مسمياته (الخطر الأحمر أو الأخضر) قد أضحى مصطلحاً ملغوماً في قاموس الإدارة الأمريكية وحلفائها؛ لأنه يدور داخل مدار محور الشر المعارض -جدلاً- لتطلعات محور الخير، وإذا نظرنا في هذه المصطلحات بإمعانٍ؛ نلحظ أ ا في ظاهرها عبارة عن أنماط للمقاربات التبسيطية، ولكنها في جوهرها توجه مسار الحروب والمعارك ذات الأهداف الفعلية المُضمرة والمسكوت عنها، وقد تطرق إلى مسوغات هذه المقاربات التبسيطية وتداعيا ا؛الباحث البريطاني «فرد هاليداي» في كتابه: «الإسلام وأسطورة المواجهة، الدين والسياسة في الشرق الأوسط»[(٢)]، أما

(١) نقلاً عن: هاشم صالح، «التأثير الديني على سياسة بوش الخارجية»، صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٩١٩٥، ٢٠٠٤/١/٣١م.

(٢) يقرأ العنوان الإنجليزي كما يلي:

Fred Halliday, Islam & the Myth of Confrontation: Religion and Politics in the iddMle East, London. New York: I.B. Tauris؛ Publishers, 1995.

يعزي «إدوارد سعيد» فكرة العدو في العقل الغربي إلى ارتباط أدبيات الاستشراق بالقوة الاستعمارية، =

«صموئيل هنتنغتون» فقد أعطى مفهوم العدو بعداً استراتيجياً في إطار نظرية «صدام الحضارات»[١].

وبناءً على ذلك أصبح «الإسلام بالنسبة للعامة في أوروبا وأمريكا؛ نوعاً من الأخبار المفزعة، وظهر أن وسائل الإعلام، والحكومة، والاستراتيجيين، والخبراء الأكاديميين - رغم ضحالتهم في الثقافة الإسلامية- أضحوا يعزفون لحناً واحداً هو: الخطر الإسلامي على الحضارة الغربية»[٢]، وأن صورة الإسلام في الإعلام الغربي المقروء والمسموع والمرئي؛ ظلت صورة واحدة ثابتة، لا تتغير من أية زاوية نظرت إليها، ومهما تكن المادة المعروضة، ويستوي في ذلك: الكتب المدرسية (مادة التاريخ)، الأشرطة الهزيلة، مسلسلات التلفزيون، الأفلام الكوميدية، والروايات الحديثة التي نالت ثناء النقاد، كراوية «ف. س. ينبول»: «انعطاف على الجدول»، ورواية «جون أبدايك»: «الانقلاب»، وتنبثق هذه الصورة الموحدة، وتستمد ماد ا من المفهوم القديم للإسلام، ولذلك يكثر

=

ويرجعها «محمد عابد الجابري» إلى البِنية الثقافة الغربية التي أُسست على فلسفة تاريخ مرتبطة بمركزية العقل الغربي، ومفهوم الاستشراق الذي يقضي بإقصاء الشرق الأوسط عن دائرة التلاقح الثقافي الكوني، أما «محمد أركون» فيرجعها إلى فكرة منحرفة ترتبط بإدارة الهيمنة على الآخر، وقد تطرق لهذه الأطروحات الثلاثة «تركي علي الربيعو» في بحثه «الخواف [كذا] من الإسلام في موقف الغرب من الإسلام»، انظر: زكي الميلاد، وتركي علي الربيعو، الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل، ط ١، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٨م، ص ٩١-١١٧.

(١) انظر**:** صموئيل هنتنغتون:

Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and Remaking of World Order, New York: Simon & Schuster, 1996.

(٢) برنارد لويس وإدوارد سعيد، مرجع سابق، ص ٣٥.

رسامو الكاريكاتير من تصوير المسلمين كموردي ِنفط، وإرهابيين، وغوغاء متعطشين للدماء، ونجد أن الهامش المتاح للتعاطف مع الإسلام ضيق جداً، سواء في ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام، أو في نطاق البحث والنقاش عن غير الغربيين بشكل أخص، وا ال يضيق بالحديث أو التفكير المتعاطف مع الإسلام؛ ناهيك عن عرضه أو عرض شأن إسلامي عرضاً متعاطفاً(١).

أما قضية الهُوية الإسلامية في المؤسسات الأكاديمية الغربية في النصف الأول من القرن العشرين؛ فلم تكن أحسن حظاً من وضعها في الإعلام الغربي والدوائر التابعة له، علماً بأن المؤسسات الأكاديمية كانت مهتمة بتناول عملية الحراك السياسي والاجتماعي والفكري في العالم الإسلامي، تناولاً جامداً لا يواكب حركة الزمان والمكان، ولا يتجاوز القراءات النصية لأدبيات التراث الإسلامي التي تجاوز التاريخ بعض فرضيا ا، وأضاف إليها الواقع المتجدد أبعاداً أخرى ذات صلة بالواقع، ويصف «جون إسبوزيتو» هذا الواقع التقليدي بقوله: «إن معظم الخبراء الغربيين قد ولجوا حقل الدراسات الإسلامية بانحيازٍ أكاديمي علماني، وقدرٍ معرفي محدد عن الإسلام وعمقه في ا تمعات المسلمة، وهناك اتجاه نحو التعميم أو الخروج باستنتاجات استنباطية من الإنجازات والفروض العلمانية المسبقة، ويدخل في مكونات هذا المشكِل: الفهم الضحِل للإسلام وحيوية التقاليد الإسلامية»(٢).

ومن زاوية أخرى؛ يثمن «جون إسبوزيتو» النقلة النوعية التي شهد ا عقود السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وتتجلى معالمها في اهتمام بعض المؤسسات

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٢) انظر: جون إسبوزيتو:

John. L. Esposito, The Islamic Threat: Myth or Reality?, 3**rd** **edn., New York. Oxford: Oxford University Press, p.** 263.

الأكاديمية في الغرب بظاهرة الإسلام السياسي، وبرامجه الإصلاحية، وخصومته الأيديولوجية مع الحضارة الغربية والأنظمة السياسية التي تدور في فَلكها[١].

واستناداً إلى الأدبيات التي نشرت عن هذه القضايا ومثيلا ا؛ يمكننا أن نصنف مواقف المفكرين الغربيين المهتمين بقضية الهُوية الإسلامية إلى تيارين رئيسين:

التيار الأول: معتدل نسبياً، متفهم لظاهرة الإسلام السياسي تفهماً يبعده عن دائرة التعميم، ومن أنصاره: «جون إسبوزيتو»، «جون فول»، «فرانسوا بورغات»، و«توني سوليفان»، وقد نشأ هذا التيار في عِقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، على إثر اتصال بعض رواده برموز الحركات الإسلامية، واستيعا م لطرفٍ من أطروحا م السياسية وبرامجهم الإصلاحية، ومن ثَم يحمل أفراد هذا التيار؛ سياسات دول المركز الغربي مسؤوليةَ تنامي التطرف الديني والعنف السياسي في أوساط بعض حركات الإحياء الإسلامية ؛ لتعاملها بمعايير مزدوجة مع بعض القضايا الخلافية الشائكة في العالم الإسلامي، وفي المناطق التي تقطُنها بعض الأقليات المسلمة؛ كالصراع العربي الإسرائيلي، والانتخابات في الجزائر، والحرب في البوسنة، وتأييد الحكومات الدكتاتورية العلمانية المعادية لمفهوم الهُوية الإسلامية.

وقد أسهمت حصيلة هذا الموقف المزدوج في خلق نوع من الروح العدائية السافرة تجاه الغرب وحلفائه في المشرق الإسلامي، ويرى أصحاب هذا التيار المعتدل؛ ضرورة تبني دول المركز الغربي سياساتٍ وبرامج متفهمةً لقضايا العالم الإسلامي وتطلّعاته السياسية والاجتماعية، بعيداً عن التقسيمات النمطية الراسخة في المخيلة الغربية، التي تزعم أن مفهوم الهُوية الإسلامية مثقل بأيديولوجيات دينية منافحة للغرب، وأن الأصولية في جوهرها معادية للحداثة، وأن التراث الإسلامي جامد في مقابل التغيير الحيوي الذي

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٦٣-٢٦٤.

يشهده العالم الغربي.

أما التيار الثاني: فيجد ضالّته في المستشرقين أو المحافظين الجدد، أمثال: «برنادر لويس»، و«دانيال بابيس»، و«صموئيل هنتنغتون»، الذين ينكرون وجود علاقة تصالحية بين الغرب العلماني والهُوية الإسلامية، ويرون أن كراهية المسلمين للغرب مجرد سلوك طبيعي، ونتيجةٍ حتمية للخطوط المتوترة التي تفصل بين الشرق والغرب، والتراث التاريخي المليء بالمفارقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية،ويعلل «صموئيل هنتنغتون» هذه الكراهية المتجذّرة بين الطرفين، بقوله: إن «الأصولية الإسلامية ليست مشكلة الغرب الأساس؛ بل الإسلام هو المعضلة التي تواجه الغرب؛ لأنه ثقافة مختلفة، والمنتمون إليها مقتنعون بسمو ثقافتهم.... والمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع الأمريكية ليستا مشكلة الإسلام؛ بل الغرب هو المشكلة التي تواجه الإسلام؛ لأنه ثقافة مختلفة، والمنتمون إليها مقتنعون بعالمية ثقافتهم، وتفوقهم الذي يفرض عليهم نشر هذه الثقافة في العالم»(١)، ومن ثَم يرى أصحاب هذا التيار أن الواقع الصدامي الذي يشهده العالم؛ يحتم على دول المركز الغربي أن تسقط أي تعامل مع الحركات الإسلامية من سلم أولويا ا السياسية، لأن هذه الحركات- من وجهة نظرهم- تقوم على تراث تاريخي يتعارض تعارضاً جوهرياً مع ثوابت الغرب المتمثلة في الديمقراطية، والرأسمالية، والعلمانية، والحرية الفردية(٢)، ويصف «توني سولفيان» موقف منظري هذا التيار بأ م:

---

(١) صموئيل هنتنغتون، مرجع سابق، ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر: صموئيل هنتنغتون، مرجع سابق، ص ٢٦٣، وشيرين ت. هنتر:

Shireen T. Hunter, The Future of Islam and the West: Clash of Civilizations or Peaceful Coexistence? Westeport. Connecticut. London: Praeger, 1998**, pp.** 71 – 72.

كانوا صهاينة أو يهوداً مثل «إيربسن كريسول»، و«كارتر باتريك»، و«دانيال بايبس»، ويمكن أن نسميهم الـ Neo-Conservatives، وهؤلاء كانوا مشغولين طوال فترة الحرب الباردة بالهجوم على الاتحاد السوفيتي، ودعم «إسرائيل».. وكانوا يدللون على موقفهم بالقول إن «إسرائيل» هي العمق الاستراتيجي الواقي بالنسبة للمصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ومن التوسع السوفيتي، وهذا الكلام مضلل؛ لأن الدعم الأمريكي الواضح «لإسرائيل» كان من شأنه أن يجعل العرب يتجهون نحو الاتحاد السوفيتي، مما يضر بالمصالح الأمريكية، ولكن مع انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي؛ كان على هذا التيار أن يبحث عن بديل آخر يقنع الولايات المتحدة بدعم «إسرائيل»، فكان هذا البديل بالنسبة لـ«صموئيل هنتنغتون» و«دانيال بايبس» هو الإسلام، وهنتنغتون لا يعرف شيئاً عن الإسلام، وكل همه إقناع أمريكا بأن الإسلام هو «الخطر الأخضر»، الذي يهدد مصالحها، فتسرع للدفاع عن «إسرائيل»[1].

أما صناع القرار السياسي المُعولَم في الغرب؛ فنجدهم قد تأثروا بموروثا م التاريخية، وإسقاطات إعلامهم الغربي، وأدبيات المستشرقين الجُدد، وسلوكيات بعض الحركات الإسلامية التي كانت – ولاتزال- تصف ممارسات بعض دول المركز الغربي بالكُفر، وتنعت الولايات المتحدة الأمريكية «بالشيطان الأكبر»، وتدعم تدمير المصالح الغربية والأمريكية على وجه التحديد، وتؤيد الخصومة الأيديولوجية المفتعلة بين الإسلام والغرب، فلاشك أن هذا الواقع الضبابي قد وضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما:

---

(١) انظر نص الحوار الذي أجراه هشام العوضي مع «فرانسوا بورغات»، و«لويس كنتوري»، و«تمارا سون»، و«توني سولفيان»: هشام العوضي، موقف الغرب من الإسلاميين من خلال الإعلام والأكاديميين وصناع القرار، بيروت، دار ابن حزم، ١٩٩٧، ص ٩٣-١١٤.

- الأول: هو الخيار السهل، ويتمثل في النظر إلى قضية الهُوية الإسلامية باعتبارها تهديداً ذا طبيعة أحادية، وعدواً تاريخياً تتعارض أولوياته بشكل قياسي مع تراث الغرب المسيحي اليهودي وأولوياته، ومن خلال هذا الفهم الانتقائي؛ تم اختزال دور دعاة الهُوية الإسلامية في أشكال نمطية ومقاربات تبسيطية ملغومة؛ مثل: الإسلام ضد الغرب، أو الإسلام ومعاداة الحداثة، أو الإسلام والإرهاب[(١)]، ويصف «إسبوزيتو» هذا الخيار الانتقائي بقوله: إنه «يضاعف جهلنا بدلاً عن أن يزيد معرفتنا بالإسلام، ويضيق منظورنا بدلاً عن أن يوسع مداركنا، ويزيد من تعقيد المشكلة بدلاً عن فتح الطريق أمام حلول جديدة، ويسهم أيضاً في خلق مناخ ينظر فيه ببساطة إلى التجاوب مع النشاط الإسلامي على أنه انحياز أو تعاطف مع العدو، مثلما كان ينظر إلى «الشيوعية» في فترة الحرب الباردة».
- أما الخيار الصعب -من وجهة نظر «جون إسبوزيتو»- فيتمثل في التمييز بين الهامش الراديكالي والتيار الإسلامي الرئيس[(٢)]، وفي ضوء هذا التصنيف يعتقد «إسبوزيتو» أن التعامل مع الحركات الراديكالية في المجتمعات المسلمة يجب أن يكون بنفس المعيار الذي تعامل به القطاعات الهامشية المتطرفة في الأديان الأخرى،مثل:مجموعات بويرتويكان الإرهابية في نيويورك، والجيش الجمهوري الأيرلندي، وجيش الرب المسيحي، وأن الإعلاميين الغربيين والأكاديميين وصناع القرار السياسي؛ يجب أن يفصِلوا بين أفعال المجموعات الراديكالية والإسلام، وذلك وفقاً لمعيار الفصل القائم في مخيلتهم بين تصرفات المجموعات الراديكالية غير الإسلامية والديانات التي تنتمي إليها[(٣)].

---

(١) جون إسبوزيتو، مرجع سابق، ٢١٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤-٢١٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧١-٧٧.

إلا أن نظرة «إسبوزيتو» هذه تبدو متفائلة؛ لأن الرؤية الغربية المسكونة اجس «الخطر الأخضر، وقانون البقاء للأصلح، وصدام الحضارات»؛ تحاول دوماً أن تغض الطرف عن هذه الخطوط الفاصلة بين الحركات الراديكالية في ا تمعات المسلمة والتيارات الإسلامية المعتدلة، تحسباً لأن مثل هذا التمييز ربما يؤثر على مصالحها المرتبطة بتدفق النفط بأسعار زهيدة وكميات مناسبة في الغرب، وحماية إسرائيل باعتبارها عمقاً استراتيجياً في الشرق الأوسط، أضِف إلى ذلك أن الإدارة الأمريكية في تعاملها مع «الإسلام السياسي»؛ محكومةً أيضاً بتيار الثقافة الصهيونية القادم من أروقة اللوبي اليهودي، ومعضدةً بموقف المسيحيين البروتستانت المتعصبين، الذين يؤمنون بأن الخلاص المسيحي لا يأتي إلا بقيام دولة إسرائيل الكبرى، ويرجحون الرأي بأن دولة إسرائيل الكبرى المذكورة في الإنجيل هي دولة الاحتلال الموجودة الآن في فلسطين، وفي ظل هذه الأطروحة المثقَلة بالمفاهيم الأيديولوجية؛ يعتقدون أن الإسلام والحركات الراديكالية المنتمية إليه هما «الشيطان الأكبر»، الذي يسعى إلى تدمير إسرائيل قبل أن تكتمل معالم الخلاص المسيحي[1].

وبعد أحداث ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م؛ أضحى هذا التوجه العدائي سائداً في علاقة الغرب بدعاة الهُوية الإسلامية[2]،وفق مسارين حددهما «صموئيل هنتنغتون»:

المسار الأول: دعوة دول المركز (أي الدول المنتمية للحضارة الغربية) إلى تأسيس إطارٍ أفضل للتمازج السياسي والاقتصادي والعسكري، الذي يمكنها من توحيد جهودها

---

(١) انظر نص الحوار الذي أجراه «هشام العوضي» مع «توني سولفيان»: هشام العوضي، مرجع سابق، ١٩٩٧، ص ٩٩-١٠١.

(٢) انظر: عبد الله ظلوم:

Abdullh Y. Zalloum, Painting Islam as the New Enemy: Globalization and Capitalism Crisis, Kuala Lumpur: Crescent New, 2003**, p.** 7**.**

تجاه الحضارات المناهضة، ويحثها على توسيع أوعية تواصلها الحضاري، وذلك بضم دول البلطيق، وسلوفينيا، وكرواتيا في وسط أوروبا؛ إلى الاتحاد الأوروبي وحِلف شمال الأطلسي، وبتغريب (westernization) دول أمريكا اللاتينية واليابان لكي يعاد تأهيلُها وضبط حركِتِها داخل مدارات التواصل الغربي ذي المصالح المشتركة والخطوط المتوترة الفاصلة مع الحضارتين الإسلامية والكونفوشية.

المسار الثاني احترازي، يحث «هنتنغتون» فيه الدولَ الفاعلة في منظومة العولمة على تحجيم تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدى دول العالم الإسلامي والصين، بحجة أ ا تمثل العدو الحقيقي للعولمة[١]، ويشجعها على تأمين ترسانا ا العسكرية لتكون رادعاً لأي نوع من التحدي والعدوان، الذي تفرضه خصومة التحالف الإسلامي والكونفوشي ضد الغرب، وتقليلاً لفاعلية هذه الخصومة؛ يحرض دولَ المركز الغربي على استغلال الخلافات والنـزاعات الموجودة إقليميا ومحليا بين الدول الإسلامية والكونفوشية؛ لتكون بمثابة آليات فاعلة لإضعاف هؤلاء الخصوم، وضبط قدرا م في إطار منظومة ا زامية يحددها المركز (أي الولايات المتحدة الأمريكية) [٢].

(١) هشام العوضي، مرجع سابق، ص ٤٥-٤٦.
(٢) المرجع نفسه.

أطروحات المستقبل وآفاقها

لا جدال في أن القضايا التي تطرقنا إليها بالشرح والتحليل؛ تبين أن العلاقة بين دول المركز الغربي ودعاة الهُوية الإسلامية علاقة مأزومة في كليا ا، ويصعب التنبؤ لها بمستقبل مشرق في إطار منظومة صدام الحضارات، والتأييد الذي تحظى به في أروقة صناع القرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية (قلب العولمة النابض)؛ إلا أن المستقبل البعيد يبشر أيضاً ببصيص أمل، ربما يقود إلى تواصل إيجابي بين الغرب ودعاة الهُوية الإسلامية، ويتبلور بصيص هذا الأمل في المعطيات التالية:

أولاً: يوجد اهتمام متزايد في الغرب بالدراسات الإسلامية وإعادة فهم القيم العقائدية التي تحكُم الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العالم الإسلامي، وفي وسط هذا الاهتمام المتزايد؛ يوجد تيار إيجابي يبحث عن القواسم المشتركة التي يمكن أن تكون رؤية إيجابية وموضوعية عن الإسلام، بعيداً عن أدبيات الاستشراق المثقَلة بإرث الماضي العدائي، أو الخوف المصطنع من «الخطر الأخضر»، وعلنا نلتمس مثل هذا التوجه في كتابات «جون إسبوزيتو» وغيره من الأكاديميين الغربيين المختصين بالشأن الإسلامي والشرق الأوسط،إضافة إلى إسهامات بعض الدوائر-شبه الرسمية -الساعية لفتح قنوات حوار بين الغرب والإسلام، ونستشهد في هذا السياق بالمحاضرة القيمة التي ألقاها ولي عهد بريطانيا «الأمير تشارلز» في مركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد في أكتوبر ١٩٩٣م، ويقول فيها:

«كثيرون من الناس هنا -أي في بريطانيا- ينظرون إلى الشريعة الإسلامية على أ ا قاسية بربرية غير عادلة، وإن صحفنا تعشق الخوض في هذه الأحقاد، ولا تعرف أن روحانية الشريعة الإسلامية التي ينص عليها القرآن الكريم أساسها الرحمة والعدل ... إني مقتنع تماماً بأن عالمَينا الإسلامي والغربي يستطيعان العطاء، ومنح الكثير،كل للآخر،

وهناك الكثير مما نستطيع أن نقوم بتنفيذه معاً، وأنه يسرني أن أُعلم بأن الحوار قد بدأ في بريطانيا وغيرها، ولكننا لازلنا نحتاج إلى بذْل جهد أكبر ليفهم كل منا الآخر، وأن نتخلّص من سموم التفرقة، ومن أشباح الخوف والتشكك، وكلما طال مشوارنا في هذا الطريق؛ فإننا نكون قد خلفنا عالماً أفضل لأطفالنا وللأجيال المقبلة»[1].

ثانياً: أن خطاب دعاة الهُوية الإسلامية تجاه الغرب؛ بدأ يتحلل تدريجياً من أدبيـات المدرستين اللتين سادتا العالم الإسلامي ردحاً من الزمان.

- **أولاهما:** المدرسة التقليدية التي ترفض التواصل مع الغرب، بحجة أن الحضارة الغربية حضارة جاهلية، تقوم على عنصرية الرجل الأبيض، وتقديس الحياة المادية ولوازمها، وتكريس الانحلال الأخلاقي، ونفْي البعد الغيبي الذي يضبط حركة الإنسان والظروف الطبيعية المحيطة به في هذا الكون المعمور.

- **وثانيتهما:** المدرسة العلمانية الليبرالية التي ولدت في أحضان الاستعمار الغربي، والظروف السياسية والثقافية التي أحاطت بتلك الفترة، وقد حاول رواد هذه المدرسة أن ينسلخوا من تراثهم المحلي، ويؤسسوا لنهضة جديدة في العالم الإسلامي، قوامها تراث الحداثة وما بعدها؛ الذي نشأ وترعرع في أحضان الغرب، إلا أن انبهار هذه المدرسة بمنجزات الحضارة الغربية المادية؛ جعلها تفقِد الثقة بالذات، وتعجز عن الوفاء بالتحول الإيجابي الذي وعدت به الشعوب الإسلامية، لذا فإن حصيلة الخطاب الانكفائي

---

(١) انظر: الأمير شارلس:

The Prince of Wales, "Islam and the West", Public Lecture presented at the Oxford Centre for Islamic Studies, 27 **October** 1993,
http://www.oxcis.ac.uk/mpl/index/html(consulted:
17/2/2004).

للمدرستين- القائم على «حماية الذات»، و«الانسلاخ عن الذات»، كما يرى «زكي الميلاد»[(١)]- لم تقدم حلولاً مقنعة لترسيخ قيم التواصل الإيجابي بين الغرب والإسلام، بل أفسحت ا ال لظهور خطاب آخر في الربع الأخير من القرن العشرين، يسعى إلى تحقيق الصحوة الإسلامية من خلال فهمٍ أعمق لتراث الأمة الإسلامية المرتكز على مقاصد الشرع، والتواصل الإيجابي مع أدبيات الحضارة الغربية ذات القيمة الإنسانية، التي لا تتعارض مع ثوابت الإسلام، ويبدو أن هذا الخطاب المعاصر يحاول أن ينقل الخطاب الإسلامي من خانة الانكفاء «حماية الذات»؛ إلى مفهوم «بناء الذات»، الذي يجب تأسيس مفرداته على الوعي الإيجابي في علاقة الإسلام مع الغرب، والاستفادة من منجزات الغرب الإنسانية وعروض العولمة التي لا تتعارض مع ثوابت الهُوية الإسلامية.

ومن أهم المبادرات التي تصب في معين هذا التوجه الوسطي، وتعطيه دفعة إلى الأمام: دعوة الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود لحوار الأديان والثقافات؛ التي أطلقها عام ٢٠٠٨م، ويقول في إحدى فقرا ا: «جئتكم من مهوى قلوب المسلمين، من بلاد الحرمين الشريفين، حاملاً معي رسالةً من الأمة الإسلامية، ممثلةً في علمائها ومفكريها الذين اجتمعوا مؤخراً في رحاب بيت الله الحرام؛ رسالة تعلن أن الإسلام هو دين الاعتدال والوسطية والتسامح، وتدعو إلى الحوار البناء بين أتباع الأديان، وتبشر الإنسانية بفتح صفحة جديدة يحل فيها الوئام -بإذن الله- محل الصراع».

ولا شك في أن هذه المبادرة وجدت تثميناً عالمياً، وحرصاً محلياً على تفعيلها من ذَوي الشأن، والشاهد: **مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة وحوار الحضارات،** الذي تم تأسيسه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض،

(١) زكي الميلاد ، وتركي علي الربيعة، الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٤٦.

حيث تبلورت رسالته في الأهداف التالية:

- إبراز منهج الإسلام في معالجة القضايا المستجِدة، والتعريف بالنظم الإسلامية وإظهار تميزها.
- التعريف بحقوق الإنسان في الإسلام، والعناية بقضايا الشباب ومشكلا م.
- العناية والاهتمام بقضايا المرأة وحقوقها في الإسلام.
- بيان موقف الإسلام من الإرهاب، وموقف المملكة العربية السعودية من القضايا المالية المعاصرة.
- التعرف على الحضارات المعاصرة وترسيخ مفاهيم التواصل والحوار بين الحضارة الإسلامية وسائر الحضارات(١).

ثالثاً: إن الوجود الإسلامي في الغرب؛ بدأ يشكل بعداً ثقافياً جديداً للعلاقة القائمة بين الغرب والعالم الإسلامي، ويظهر هذا البعد جلياً في كتابات «علي مزروعي»، و«سليمان يانج»، و«روجيه جارودي»، و«طارق رمضان»، فلا شك في أن عطاء هذه النخبة سيسهم في صياغة منظور جديد لقيام علاقات مستقبلية فاضلة بين الإسلام والغرب، يراعى فيها وضع الأقليات المسلمة في الغرب، وتعريف الغرب بالعالم الإسلامي؛ من خلال رؤية سليمة دف إلى إزالة أدران التشوهات التي أُلصقت بمنجزات الحضارة الإسلامية، ودحض الخوف المصطنع من إمكانية التعايش بين المسلمين وأبناء الحضارة الغربية.

---

(١) لمزيد من التفصيل؛ انظر: الموقع الإلكتروني لمركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة وحوار الحضارات.

http://www.imamu.edu.sa/support_deanery/dialogue_civilizations/news/Pages/Al-saraan-2.aspx

رابعاً: هناك موقف آخر مطابق للموقف السابق من حيث التشكيك في مركزية الذات الغربية وفلسفا ا القائمة على مفهوم الصراع بين السادة والعبيد، ومنطق القوة، وقانون البقاء للأصلح، يتجلى هذا الموقف في كتابات «إدوارد سعيد» و«محمد أركون»[(١)]، التي تنتقد التصور الغربي الاستشراقي تجاه الحضارة الإسلامية، وتعده تصوراً مضلّلاً مشكّكاً، قائماً على جملة من الأساطير والمخاوف التقليدية التي ورثها الغرب من أدبيات الاستشراق الوظيفي، التي كانت دف إلى تبرير التوسع الإمبريالي على حساب دول العالم الثالث، وينتقد «إدوارد سعيد» في أدبياته الحديثة؛ نظرية «صموئيل هنتنغتون» عن صدام الحضارات، ويشكك في موضوعيتها كدراسة استراتيجية لتوجيه صناعة القرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الاستراتيجيين.

---

(١) محمد أركون، «الإسلام، أوربا، الغرب: رهانات المعنى وإدارة الهيمنة»، (تعريب: هاشم صالح)، بيروت: دار الساقي، ١٩٩٥.

خاتمة

نخلص ـذا العرض إلى أن العولمة المعاصرة في مجملها؛ مجموعة من النظم السياسية والاقتصادية والثقافية التي نشأت مفعمةً بإرث الحداثة الغربي، وبدأت تأخذ شكلها المؤسسي بعد زوال شبح الحرب الباردة، وذلك في إطار منظومة الديمقراطية الليبرالية واقتصاديات السوق الحر، وقد وجدت هذه النظم رعايةً وتأييداً من دول المركز الغربي التي تحاول أن تفرض خصوصيا ـا على الآخر، وتصنف الدول أو الجماعات المنافحة لها كدول أو جماعات تمثل «محور الشر»، ومن أخطر الأيديولوجيات المحركة لهذا المحور الشرير- من وجهة نظر الخطاب السياسي المعولمَ- قضية الهُوية الإسلامية، وقد ولد هذا الشعور العدائي في الغرب رؤية عدائية مقابِلة في العالم الإسلامي، أضحت تنظر إلى الحضارة الغربية التي صِيغت في إطارها أدبيات العولمة المعاصرة؛ على أ ـا شر مستطير، وأن دولة المركز (الولايات المتحدة الأمريكية) التي ترعى خطا ـا السياسي؛ «شيطانٌ أكبر»، وكما أوضحنا في الفقرات السابقة؛ فإن هناك خطاباً تصالحياً بدأت تتشكل معالمَه في العالمين المتخاصِمين؛ إلا أن هذا الخطاب من جانبه الإسلامي يحتاج إلى منظور حضاري تتجسد من خلاله رؤية المسلمين للغرب، وحضارته التي أُسست على هدي تراكمات الحضارات التي سبقتها، ونسجت مفردا ـا بمنوال فلسفات ضخمة جعلتها تسمو إلى أرقى مراقي الحضارات الإنسانية التي عرفها العالم، وهذا الارتقاء الذي حققته الحضارة الغربية في كثير من ا ـالات المادية والمعرفية والمعنوية؛ ينبغي ألا يمنع المسلمين من الاعتراف بأن بعض القيم التي قامت عليها مفردات الحضارة الغربية تختلف عن ِقيمهم الإسلامية؛ إلا أن هذا الاختلاف القِيمي يجب ألا يكون دافعاً لرفضهم لإنجازات الحضارة الغربية في كليا ـا وجزئيا ـا، ووصفها بأ ـا حضارة تقوم على العلمانية، والانحلال الأخلاقي، والانتحار، والمخدرات، بل يجب أن تؤسس الرؤيةُ الإسلامية وفق معايير استجابة ورفض؛ **تتحرك أولاً** تجاه ترميم صرح الهُوية الإسلامية المتصدع من الداخل، وذلك وفق مبادئ الإسلام

القائمة على الحرية، والمساواة، والإخاء في الدين، والعدالة الاجتماعية والسياسية، والشورى في حسم القضايا التي م الشأن الإسلامي، بعيداً عن التشنجات الفكرية والعرقية التي أقعدت الحضارة الإسلامية عند دورها الرسالي، **وتأ**تي **ثانياً** عملية التجاوب مع إنجازات الحضارات الإنسانية الأخرى دون تمييز، بل بانفتاحٍ متبصر تؤسس مفرداته على ثوابت الإسلام،ويجب أن يكون مدخل المسلمين في هذا الشأن مدخلاً معرفياً، يقوم على فهم المقاصد الشرعية للدين الإسلامي دون التزامٍ حرفي بالقيم التراثية التي خلفتها الاجتهادات البشرية التي شيدت على هدي النصوص القرآنية والحديثية الواردة بصيغ ظنية؛ ثم يعول على الاستفادة من تقنيات المناهج المعرفية وأدوات البحث العلمي الرفيع التي توصلت إليها الحضارة الغربية، وبذلك تضيق المسافات التي تفصل بين العالمين الغربي والإسلامي في مجالات التقدم العلمي، والتطور الاجتماعي، والنمو الاقتصادي كما هو الحال في ماليزيا، وبذلك يصبح الحوار مع الغرب هادفاً منعتِقاً من قيود التبعية الغربية القائمة على سد النقص في الاحتياجات المادية (المأكل والمشرب والملبس) في البلدان المسلمة، متحللاً من أثقال الخطاب السياسي المعولَم الذي ينادي بضرورة «الإصلاح السياسي والثقافي والاجتماعي في الشرق الأوسط الكبير»؛ دون أدنى مراعاةٍ لثوابت هويته الإسلامية ومعطيات الواقع فيه، وهذا الحوار المنشود بنظرنا؛ لا يكلل بالنجاح إلا في إطار فضاءٍ فكري متسامِح فسيح خلاق، يقضي بتحويل النماذج النظرية والمفاهيم المغلقة القائمة على يقينيات قطعية ملغومة وذات توجهات أحادية؛ إلى أدوات مساعدة لفهم ثوابت الآخر وإدراك خصوصياته، دون أن تكون هذه الأدوات مربكة لآليات الحوار والفهم والتواصل معه.